السخرية في الخطاب الفقهي الأصولي كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" لابن حزم الأندلسي(ت456ه/1064م) أنموذجا

د. بثينة الجلاصي
معهد أصول الدين، جامعة الزيتونة
تونس

المقدمة

يعدّ مبحث السخرية في التراث العربي الإسلامي من المباحث المسكوت عنها رغم أنّ مصنفات القدامى زخرت بنصوص تصرّح بالسخرية حينا وتلمّح لها حينا آخر، ولعلّ قلّة الاهتمام بهذا المبحث على أهميته الخطابية يعود في تقديرنا إلى سببين سبب ديني إذ وردت في القرآن آيات عديدة [1] تستهجن السخرية وتنهى عنها لما تثيره من شحناء بين النفوس وبغضاء في المعاملات قد تؤدي إلى الفرقة وتهدّد وحدة الأمّة، بالإضافة إلى أنها تمسّ روح الشرع المعتمدة أساسا على مكارم الأخلاق، أمّا السبب الثاني فنعزوه إلى تعايش مصطلحات ومفاهيم عديدة تتصل بمفهوم السخرية من قريب أو بعيد منها: الهزل والفكه والنادرة والهجاءوالضحك والمزاح [2] فاستعملت هذه في معاني تلك ولعلّ المصطلح الرائج في مصنّفات القدامى هو مصطلح التهكّم والاستهزاء للدّلالة على معنى السخرية [3]

[1] أنظر سورة التوبة 79/ الأنعام 10/ هود 38/ الأنبياء 41/ الحجرات 11/ الصافات 12/ البقرة212/ الزمر56،

[2] le comique/ l humour/ le fable/ le satire/le rire/la plaisanterie

[3] انظر : الزمخشري(جار الله): تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصحف، ط2، القاهرة، 1977، ج1، ص59 (يفسر الية 10 من سورة الأنعام"فحاق بالذين سخروا منه"أي فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به
وفي نفس الإطار استعمل البلاغيون مصطلح التهكم واستأنسوا به في تعريف الاستعارة من ذلك ما أورد ه السكاكي في تعريف الاستعارة التمليحية أو التهكميّة من أنها" استعارة اسم أحد الضدّين أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه التضادّ وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التمليح ثمّ ادّعاء أحدهما من جنس الآخر والإفراد بالذكر ونصب القرينة"(مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983، ص375

ولئن كانت الفروق المفهومية بين هذه المصطلحات وتتبع تاريخها وسياق تواردها في المصنفات من المباحث الجديرة بالاهتمام إلاّ أنّها تفيض عن هذا المقال لإيماننا بإنّ دراسة السخرية مظهرا من مظاهر الحجاج من القضايا الهامّة في تحليل الخطاب وإبراز سلطة الحجة فيه، وتوجيه المعنى في ثناياه، وهو في الحقيقة أمر أكّدته الدراسات النصيّة المهتمّة بهذا الاختصاص منذ مطلع القرن العشرين، وأولته المقاربات اللسانية والتداولية فالعرفانية نفس الأهمية لارتباطه بقضايا المعنى [1] سورة التوبة**79**/ سورة الأنعام**10**/ سورة هود**38**/ سورة الأنبياء**41**/ سورة الحجرات**11**/ سورة الصافات**12**/

وإذا كان مدار اهتمام الدراسات الحديثة حول السخرية ينصبّ أساسا في المباحث الأدبيّة والسياسية والانتروبولوجية الدينية، والسيكولوجية وفي المباحث الفلسفية، [2] فإنّنا نفتقر فيما نعلم إلى دراسات تعنى بالنصوص الفقهية سيّما منها التأصيلية، إذ وردت في باب حجية الأدلّة عبارات ساخرة من الخصوم تستدعي من الباحث دراسة في سبب ورودها في نصّ يعنى بالتشريع وفي الكشف عن وظيفتها في مثل هذا الباب خاصّة أنّ الأمر يتصل بنوع من المناظرة المفتعلة، ونقصد أن يختلق الأصوليّ خصما يحاججه أو يورد جملة الاعتراضات الممكنة سواء وجدت بالفعل أو بالقوّة، ولعلّ من أوكد آداب المناظرة ألاّ يسخر المناظر من خصمه [3]، ناهيك عن البعدالديني الاستهجاني للسخرية.

[1] -C .Kerbrat-Orecchioni « Problèmes de l'ironie »-in linguistique et sémiologie ,LYON, 1976
-Voir aussi son article : l'ironie comme trope. In Poétique 41 Fev 1980, p 113.
-Alain.Berrendonner : Elément de pragmatique linguistique,Ed.Minuit,Paris,1982
-Dan Sperber etDerdre Wilson, Lapertinence,communication et cognition,Minuit, Paris, 1989,P360

[2] -Bertrand Rouge :Ironie et répétition dans deux scènes de Shakespeare. In Poétique 87 sep,1991
-Beda Alleman « de l' ironie en tant que principe littéraire » in poetique36, 1978, traduit de l'allemand par jean – pierre MOREL
ومن الأبحاث التي اشتغلت على علاقة السخرية بالسياسة نذكر:
القشطيني (خالد): السخرية السياسية العربية، دار الساقي، 1988

[3] البغدادي(الخطيب): الفقيه والمتفقه، تحقيق عادل العزازي، دار ابن الجوزي، ط1، الرياض، 1996، مج1، ص556

انطلاقا من ذلك اخترنا أن نتبيّن مظاهر السخرية مبنى ودلالة في كتاب" الإحكام في أصول الأحكام" لابن حزم الأندلسي، وأن نستجلي وظائف هذه السخرية في نسيج الخطاب ودورها في إقرار سلطة الحجة، ويعود اختيار كتاب " الإحكام" دون غيره من كتب الأصوليين إلى سببين أوّلهما نزوع صاحبه إلى المجادلة والسخرية ومخاتلة الخصم في المناظرات، وهو أمر أكده أغلب الدارسين المهتمين بفكر ابن حزم ناهيك عن معاصريه [1]

أماّ السبب الثاني فيعود أساسا إلى أنّ كتاب "الإحكام" يكاد يتميّز عن غيره من المصنّفات الأصولية بإيراد أساليب ساخرة من الخصم تتفاوت في الحدّة إلى درجة ترتقي إلى السبّ والشتم، وهو ما لم نعثر عليه في كتب أصولية أخرى سواء أكانت على طريقة الفقهاء أو طريقة المتكلمين.

لقد دفعتنا هذه الخصوصيّة في تأصيل الأحكام وإثبات حجية الأدلّة إلى تقسيم هذا المقال قسمين رئيسيين يهتمّ أوّلهما برصد مظاهر السخرية وتقصّي تجلياتها في مستوى المباني والأساليب، ثمّ في مستوى الصور البلاغيّة، أماّ القسم الثاني فيتّصل بالبحث في وظائف هذه السخرية ودلالاتها الحجاجية ونجاعتها الخطابية.

1- مظاهر السخرية في كتاب " الإحكام في أصول الأحكام"

[1] يفوت (سالم): ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1986، ص42 :" يميل للنقد والسخرية والمساجلة والانتقام الفكري......"

ابن العربي(أبو بكر): العواصم من القواصم، مطبعة عبد الحميد بن باديس، الجزائر، 1928، ج2، ص67، يتحدث عن ابن حزم، فيقول"كان بين أقوام لا نظر لهم إلاّ المسائل، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا ، فتضاحك مع أصحابه منهم"

وفي نفس الإطار تحدث المستشرق برونشفيك عن شخصية ابن حزم قائلا: يتميز ابن حزم بتلك الشخصيّة الأصيلة المتحمسة المدعمة بشخصية مناظر عنيد لا يرحم خصمه، يستهدف خدمة معتقدات جدّ راسخة"

R.Brunschvig, polémique médiévales autour du rite de Malik. Dans AL-Andalus,vol xv fascK2K p378 Madrid 1950

إنّ حصر مظاهر السخرية في كتاب "الإحكام" صعب ولا يمكن استيفاؤه في بحث محدود، ولذلك ارتأينا أن نهتمّ بهذه المظاهر في باب إبطال القياس وتحديدا في باب الحجية، إذ فيه يستحضر ابن حزم خصومه ويستدعي آراءهم مبيّنا تهافت الحجج فيها وسوء ترتيب منطق الأدلة في ثناياها، ومن الجدير بالذكر أنّ ردّ ابن حزم على خصومه قد استند إلى الاستئناس بمعرفته البلاغية واللغوية بالإضافة إلى الاحتجاج بعلوم القرآن والحديث والسيرة والتاريخ

فما علاقة هذه المعارف بالسخرية؟ وكيف تمكن ابن حزم من توظيفها توظيفا حجاجيا؟

أ- السخرية في مستوى الأساليب

نقصد بالأسلوب كل الظواهر اللغويّة التي يتوسّل إليها المتكلم للتعبير عن مقاصده من القول مراعيا في ذلك أساسين هما الدلالة والتداول، أو بعبارة القاضي عبد الجبار الدلالة والمواضعة[1]، وقد عبّر ابن حزم بأساليب مختلفة عن موقفه الساخر من خصومه، ومن هذه الأساليب:

أ- 1- الاستفهام (سخرية السؤال)

توارد الاستفهام كثيرا في باب حجية القياس، وهو استفهام إنكاري مبدوء عادة بهل أو بالهمزة والإنكار فيه يدلّ على معرفة ابن حزم بحقيقة الحكم واستغرابه من إصرارالخصم على قوله، مماّ يدفعه إلى توريطه في حسم المسألة وتبكيته، ويقف ابن حزم منه موقف الساخر لإنه بلغ مرتبة الانتصار في مقابل انكسار الخصم وأعلن القول الفصل مقابل عجز الطرف الآخر، وفي هذا الإطار أثبت ابن حزم أنّ تحريم شحم الخنزير وأنثاه لم يكن بقياس، وإنما بنصّ القرآن الصريح، وبالإجماع الصحيح، فالأمر ينحصرعنده في تفقه قواعد اللغة، إذ أنّ قوله تعالى"أو لحم خنزير فإنه رجس"(سورة الأنعام145) يعني الخنزير جملة " شحمه وغضروفه ودماغه ومخه وعصبه وعروقه وجلده وشعره وعظمه وعضله وسنه وظلفه وملكه والأنثى منه ولبنها"[2] ودليله على ذلك أنّ الضمير في قوله إنّه راجع على الخنزير وليس على اللحم،

---

[1] عبد الجبار(القاضي): المغني في أبواب التوحيد والعدل، إشراف طه حسين وإبراهيم مدكور، وزارة الأوقاف والإرشاد القومي، مصر، 1960، ج15، ص162

[2] الإحكام، ج7، مذكور، ص1005

وقد حاجج خصومه من خلال السؤال عن جزئيات بديهية، وهي كيف يقاس اللحم على الشحم وعلى سائر أعضاء الخنزير الأخرى؟ والحال أنّ القياس لا يكون إلاّ بين المتماثلات، وكيف يفرّق أصحاب هذا القياس بين الشحوم في البدن ثمّ يقيسون ذلك على اللحم، بل إنّ أقوالهم عرضة للتهافت لانهم يقرون أن اللحم غير الشحم ومع ذلك يقيسون هذا على ذاك، يقول ابن حزم:" ومن الطرائف أنّ المحتجين بهذا يقولون أو أكثرهم: إنّ الشحم جنس غير اللحم ويجيزون رطل لحم برطلي شحم...، فأين هذيانهم، إنما حرّم شحم الخنزير قياسا على لحمه؟" [1] وتتأكّد السخرية المبطّنة في خطاب ابن حزم من خلال الأسئلة المتتالية عن مسلمات لا تتطلب إجابة ولاييحث فيها ابن حزم عن جواب بقدر ما يهدف إلى تعرية خطاب الخصم وبيان مقدار التهافت والتفاهة فيه من ذلك قوله: "أخبرونا عن قول الله تعالى:" أو لحم خنزير فإنه رجس" ماذا أراد به عندكم؟ اللحم وحده دون الشحم؟..أم أراد به الشحم واللحم والعظم واللبن؟ [2]

تتأكد نية ابن حزم في تعرية خطاب خصمه وفضح مواطن الوهن فيه أنه يصل في نهاية المحاججة وبعد أن يسدّ منافذ الردّ على الخصم إلى إقرار حقيقة، وهي انتصار حججه وصواب رأيه، وقلب السؤال عليهم دون الظفر بإجابتهم، وهذا التبكيت هو باعث من بواعث السخرية في الخطاب، وتصغير مقام الخصم، وبيان جهله الفقهي، يقول:" هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، وفي هذا خالفناكم وكذبنا دعواكم، فحصلوا في ضلال محض" [3]

أ- 2 - صيغ التعجّب

تواردت في كتاب" الإحكام" صيغ تعجب متنوّعة منها ما ورد جملة صريحة مثل قوله" وهذا عجب عجيب" أو قوله:"ومن أعجب العجب احتجاج المرء بما لا يراه حجة"، ومنها ما ورد جملا تتضمن التعجب من خلال فحوى السياق وذلك في قوله" وقد قال بعض أصحاب القياس: إنّما أنكر في هذه الأحاديث من يقيس برأيه، وأماّ من يقيس على تشابه المنصوص فلم يذمّ ! ومنها ما ورد مسبوقا بعبارات التعجب أو صيغه

[1] نفسه ص1006

[2] الصفحة نفسها

[3] الصفحة نفسها

المعروفة، مثل قوله:" وما يعلم في البدع أشنع من هذا القول! ثمّ هو مع شناعته بارد سخيف متناقض! أو قوله:" فلا أعجب من تجليح (الإقدام والمضي) من أدخل هذا القياس!.

إن أهم ما يمكن ملاحظته هو كثرة استعمال صيغ التعجب في كتاب "الإحكام"، وهذه الكثرة لها دلالة حجاجية هامّة، إذ تفرض على الخصم والقارئ سلطة حجة لانها توهن مقالة الطرف الآخر وتحوّلها إلى كلام لا معنى له، وتخرجه من دائرة العقل والمنطق إلى دائرة السفسطة واللغو، وهو ما ورد في تعجبه من تعريف القياس عند أبي بكر الباقلاني(ت 403هـ/1013م)، يقول ابن حزم متعجبا من تعريفه:" وهذا كلام لا يعقل، وهو أشبه بكلام الممرورين منه بكلام غيرهم، وكلّه خبط وتخليط، ثمّ لو تحصّل منه شيء وهو لا يتحصّل لكان دعوى كاذبة بلا برهان، وأطرف شيء قوله "أحد المعلومين" فليت شعري ما هذان المعلومان ومن علمهما؟" [1]

ويعتمد ابن حزم في سخريته من خصومه على جوانب التعميم والاشتباه في مقالاتهم وعلى قلّة تمهّرهم في استعمال اللغة العربية، في حين أنّ المفترض في تأصيل الأحكام وتعريف الأدلّة مراعاة دقة العبارة، وهذا لا يتسنى إلا إذا كان الخصم متفقها في اللّغة وعلومها [2] وفي تحديد المفهوم وتخصيصه ولا يتاح ذلك أيضا إلاّ بمعرفة مختلف العلوم العقلية والنقلية، ففي إطار ردّه على القائلين بالقياس والمحتجين بسورة يوسف في قوله تعالى:" لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"(يوسف 111) يتعجب ابن حزم من تفسيرهم العبرة على أنّها القياس، ويستنكر ذلك متوسلا إلى السخرية من هشاشة المعنى في مقالاتهم يقول:" فليت شعري أيّ قياس في قصة يوسف عليه السلام!

---

[1] الإحكام، ج7، ص973

[2] الرهوني(أبو زكريا): تحفة المسؤول في شرح مختصر منتهى السول: تحقيق الهادي شبيلي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2002، ج1، ص159/158، يتبنى نفس الرأي في موقفه من علاقة العربية أصول الفقه:" وأماّ العربية فلأنّ الأصوليّ يبحث عن عوارض الأدلّة، وإذا لم يعلم دلالتها لا يمكنه البحث عن أعراضها والأدلّة عربية لأنها من الكتاب والسنة وهما عربيان، فيتوقف البحث على = معرفة الأوضاع اللغوية من حيث الحقيقة والمجاز، ومعرفة ما يعرض للألفاظ من العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والحذف والإضمار إلى غير ذلك، فتتوقف إفادتها للأحكام على معرفة ذلك"

أترى أنّه أبيح لنا بيع إخوتنا كما باعه إخوته؟! أو ترى أنّ من باعه إخوته يكون ملكا على مصر ويغلو الطعام في أيامه!"[1]

غير أنّ ابن حزم لا يورد في الأغلب الأعمّ أسلوب التعجب إلا مشفوعا بالاستفهام الإنكاري مما يزيد في تقوية معنى السخرية وسدّ أبواب الاحتجاج عند الخصم من ذلك قوله:" وأماّ الهذيان فلسنا منه في شي ء ولا ندري وجه القياس في تغطية آدم عورته بورق الجنّة، وليت شعري لو قال لهم خصمهم مجاوبا لهم بهذا الهذيان: إنّ هذه حجّة في إبطال القياس! بماذا كانوا ينفكون منه؟! وهل يكون بينه وبينهم فرق؟" [2]

يبدو إذن أسلوب السخرية واضحا في قياس ما لا يقاس وفي إقرار الإمكان بدل المحال، وفي إثبات ما لا يمكن إثباته، وبذلك جوّز ابن حزم لنفسه أن ينعت كلام خصومه بصفات مستهجنة من قبيل:" الهذيان" "و التمويه" و" الغش" والحيل الواهية" "والجنون"، وهذه الصفات وإن كانت في ظاهرها ذماّ وهجاء، فهي في باطنها سخرية غايته دحض مقالة الخصم ومن ثمّ إقصائه من مشغل التأصيل.

أ- 3 - أسلوب الهدم

يعتبر أسلوب الهدم من الأساليب الناجعة في الخطاب الحجاجي، فهو حسب تعريف ابن قيم الجوزية(ت751هـ/ 1350م):" أن يأتي غيرك بكلام تضمّن معنى فتأتي أنت بضدّه، فكأنّه قد هدم ما بناه المتكلّم الأوّل" [3]

ولئن كان هذا الأسلوب من الأساليب المتداولة في المناظرات والمساجلات والرّدود أي في إطار يحتدّ فيه الجدال ويُوجّه فيه الخطاب توجيها يغلب عليه الجدّ، فإنّ حضوره في كتاب" الإحكام" كان موظّفا للسخرية من آراء الخصوم وبيان تهافت الحجج فيها، من ذلك ما احتجّ به القائسون على وجوب القياس من خلال صريح نصّ القرآن في سورة الأعراف وسورة فصلت وسورة فاطر وسورة الإسراء [4] فقاسوا الموتى على

---

[1] الإحكام، ج7، ص991

[2] نفسه، ص 995

[3] الجوزية(ابن قيّم): كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن، إشراف لجنة تحقيق التراث، مكتبة الهلال، بيروت، دت، - ص219

[4] سورةالأعراف آية 57: قال تعالى:" حتى إذا أقلّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكرون"

الثمار والنبات في اشتراكهما حكم الحياة والموت إلاّ أنّ ابن حزم يهدم هذه المقالة ببيان استحالة رجوع الموتى إلى الحياة كما ترجع النبات وهو ما يناقض نظام الكون يقول:" والمحتجّ بهذه الآيات في إثبات القياس في الأحكام، إماّ جاهل أعمى لا يدري ما القياس، وإماّ مموّه لا يبالي ما قالن ولا ما أطلق به لسانه في استدامة حاله، ولو كان هذا قياسا لوجب أن يحي الله الموتى كلّ سنة في أوّل الربيع، ثمّ يموتون في أوّل الشتاء، كما تفعل الثمار وجميع النباتات، وهذا مماّ لا يقوله إلاّ ممرور، وإنّما أخبر تعالى في كلّ هذه الآيات بأنّه يحي الموتى ويقدر على كلّ ذلك، لا على أنّ بعض ذلك مقيس على بعض البتة" [1]

إنّ أسلوب الهدم عند ابن حزم يأتي متلبّسا بمعاني الاستحالة والخلط في ذهن الخصم وبعدم مراعاة جنس المقيس والمقيس عليه وعدم تمحيص نوع كلّ منهما وخاصياته، فيندفع الخصم إذذاك إلى التسرع في إجراء القياس دون مراعاة قوانينه وضوابطه، وهذا التجاوز يوظّفه ابن حزم توظيفا باعثا على السخرية نستشفه من استعمال أداة الشرط "لو" التي تفيد الامتناع والاستحالة، في قوله" لو كان قياسا لوجب أن يحي الله الموتى كلّ سنة"، وتكشف أداة الشرط أيضا عن عدم ملاءمة بين المقيسين، فيكون القائس ممرورا حسب عبارة ابن حزم أي أحمق لا يحتكم إلى العقل

أ- 4 –أسلوب العدول

نتبنىّ ما ذهب إليه القدامى [2] في كتب التراث من أنّ العدول يعني الاختيار، اختيار كلمة بدل أخرى، أواختيار صفة بدل صفة أو بدل اسم، وقد وقفنا عند هذه الظاهرة في كتاب " الإحكام"، إذ استأنس بها ابن حزم في أكثر من موضع، سيّما

- سورة فصّلت الآية 39:" فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إنّ الذي أحياها لمحيي الموتى"
- سورة فاطر الآية 9:"فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور"

سورة الإسراءالآية51:" فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أوّل مرّة

[1] الإحكام، ج7، ص 998

[2] ابن أبي الإصبع(زكي الدين): بديع القرآن، تحقيق وتقديم حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر، ط7، 1957، ص54-

- الزركشي(بدر الدين): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1972، ج 3، ص 339

في المواطن التي توجّه فيها إلى خصومه من ذلك أنه لم يذكر خصمه باسمه، وإنّما عدل عن ذلك إلى صفة مستهجنة تتضمن معاني السخرية والحطّ من شأن الطرف المقابل، ففي إطار ردّه على القائلين إنّ القياس أقوى من خبر الواحد لأنه يدخله خوف الخطإ من التشبيه فقط، أماّ خبر الواحد فيدخله السّهو وتعمّد الكذب، لذلك يكون العمل بالقياس أقوى إذ يدخله عيب واحد لا عيبان، يردّ ابن حزم واصفا الأبهري وهو أبو الفرج المالكي بالجاهل، ويظهر العدول هنا في تغييب الاسم (الأبهري) وذكر الصفة (الجاهل)، وهي بالإضافة إلى ما تتضمّنه من معاني الاحتقار والاحتقان والافتقار، فإنها تشكّل صورة مهزوزة للخصم من الناحية الفقهيّة والمعرفيّة، يقول ابن حزم:" ويقال لهذا الجاهل المقدّم: أخبرنا عنك أتقيس على خبر الواحد أم لا؟ فإن قال: لا، كذب وأفصح، وأريناهم خزيهم في قياسهم صداق النكاح على القطع في عشرة دراهم، وهو خبر واه ساقط" [1]

ويظهر العدول من ناحية أخرى في مستوى الضمائر، فقد انتقل ابن حزم في حديثه عن المفرد (قال/ كذب/ أفصح) إلى توجيه الخطاب للجمع الغائب(أريناهم/ خزيهم/ قياسهم)، فتجاوز بذلك الخاصّ إلى العامّ ولا شكّ في هذا الأمر يحمل دلالات حجاجية نحاول الكشف عنها في القسم الثاني من المقال

ب- السخرية في مستوى الصور البلاغيّة

لايقتصر تشكّل معنى السخرية في الخطاب على الأساليب فحسب، وإنّما يعضد السّاخر هذه الأساليب بصور بيانية أو بديعية تعمّق غرضه في الخطاب وتكشف عن نيته في الإطاحة بالخصم، ولئن كانت المدونة التي اخترناها تتميّز بخصوصية الموضوع، إذ تعنى بضبط الأدلة الكلية للأحكام التفصيلية، فلا يعني ذلك أن يكون الأصولي مستتكفا عن استعمال الصور البلاغية في خطابه سيما في باب الحجيّة، وقد وظّف ابن حزم هذه الصور للسخرية من خصومه، ورصدنا ثلاثة أنواع وهي:

ب- 1- التشبيه

عرّف ابن حزم التشبيه في كتاب"الإحكام" تعريفا خالف فيه جمهور البلاغيين، إذ سوّى بينه وبين التمثيل في المفهوم، يقول:" والتشبيه هو أن يشبّه شيء بشيءفي بعض

[1] الإحكام، ج8، ص 1125

صفاته، (....)، لأنّ كلّ ما في العالم فمشبّه بعضه لبعض ولا بدّ من وجه أو من وجوه، ومخالف أيضا بعضه لبعض ولا بدّ من وجه أو من وجوه، وهو أيضا التمثيل"[1]

أماّ رأي البلاغيين في التشبيه فيتأسس على التخصيص في حين يشمل التمثيل صورا أخرى كالاستعارة والكناية، إذ أنّ" كلّ تمثيل تشبيه وليس كلّ تشبيه تمثيلا" على حدّ عبارة الجرجاني[2]

إنّ المهمّ في تعريف ابن حزم للتشبيه هو وعيه بأهميته في تقريب المشبّه من الأذهان سواء برصد وجوه التقاطع أو وجوه التمايز بينه وبين المشبّه به، ولهذا السبب استخدم ابن حزم التشبيه في تمثيل الخصم والحطّ من شأنه، إذ يذكر تورّط أصحاب القياس في إثبات الشبه وتعليل الأحكام، ومن وجوه التورّط عندهم عزوفهم عن لفظ القياس ولجوؤهم إلى التمثيل والتنظير وفرارهم من ذكر العلل، ولهذا السبب يشبههم ابن حزم قائلا كانوا "كالمستجيرين من الرمضاء بالنار، وكمحلل الخمر باسم النبيذ"[3]، و"كالغريق يتعلّق بما وجد".

إنّ هذا التشبيه قد اعتمد في المقام الأوّل على مثل سائر عند العرب، وهو في الأصل عجز لبيت مجهول القائل، هو:

المستجير بعمرو حين كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولهذا البيت قصّة يذكرها الشنقيطي في كتابه" قطوف الريحان من زهر الأفنان" هي أنّ كليبا لماّ داهمه الموت، طلب من جسّاس أن يسقيه الماء، فرفض، فالتفت إلى

---

[1] الإحكام، ج1، ص 63

[2] الجرجاني(عبد القاهر): أسرار البلاغة في علم البيان، تصحيح وتعليق رشيد رضا، دارالمعرفة، بيروت، 1981، ص75

الجدير بالملاحظة أنّ رأي ابن حزم في التشبيه أكّده ابن الأثير كتابه: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990، ج1، ص373

[3] الإحكام، ج7، ص 1024

عمرو عسى أن يغيثه بشربة ماء، فنزل إليه، وأجهز عليه [1]، فأصبح هذا البيت يضرب لمن أخطأ الوجهة وتورّط في أمر لم يكن يتوقّعه.

والخلاصة من ذلك أنّ التشبيه التمثيلي للخصم يتضمّن سخرية من خلال استدعاء المثل العربي لتوصيف حالة الخصم، وما يشفع هذه السخرية ظاهرة التكرار في فعل فرّ والمصدر منه الفرار مقابل فعل لجأ، وأماّ التشبيه الثاني وهو محلّل الخمر باسم النبيذ فقد أراد ابن حزم من خلاله أن يخرج الخصم في صورة باعثة على السخرية لأنّه فضح نيّته في التّحليل وفضح جهله في التقريب، وكذا الأمر بالنسبة إلى التشبيه الثالث إذ عبّر فيه ابن حزم عن حالة القائسين في الاحتكام إلى أدلّة تنفي تعليلهم عوض أن تؤكّده، فيقعون في التهافت والتناقض دون علم بذلك

ب- 2- الكناية

يعرّفها ابن حزم في"الإحكام" بأنّها" لفظ يقام مقام الاسم كالضمائر المعهودة في اللّغات، وكالتعريض بما يفهم منه المراد، وإن لم يصرّح بالاسم، ومنه قيل للكنية كنية" [2]

لقد استأنس ابن حزم بالكناية في إطار شتم الخصوم وسبّهم علنا حتى أننا لا نكاد نجد ردا له دون شتم ولعن، وهذه الكنايات هي إماّ خاصّة بقول الخصوم كأن يقول" وزاد بعضهم جنونا" [3].

وفيها تعريض مباشر للخصم لانّ خطاب الجنون لا يصدر إلاّ عن مجنون، ويمكن أن يفهم الجنون في هذا المقام بمعنييه، أماّ المعنى الأوّل فهو الخلل في فهم الغاية وطلبها والخلل في اتخاذ الوسيلة إليها، أي أنّه خلل في مدارك العقل وسبل الإدراك، وهو المعنى الذي عبّر عنه ابن الجوزي (ت597هـ/1201م) في قوله:"الجنون عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعا..والمجنون أصل إشارته فاسد فهو يختار مالا يختار" [4]

---

[1] الشنقيطي(أحمد): قطوف الريحان من زهر الأفنان شرح حديقة ابن الونان للجنكي، نشر دار عمر الشنقيطي، ط2، 1999، ص 93

[2] الإحكام، ج1، ص63

[3] الإحكام، ج7، 993

[4] ابن الجوزي(أبو الفرج):أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دت)، ص22

أماّ المعنى الثاني فهو معنى ديني متلبس بالمروق عن تعاليم الشريعة أو الكفر بما نصّت عليه العقيدة، والإيغال في ارتكاب المعاصي، وهذا المعنى استنبطه النيسابوري من قولين للرسول صلّى الله عليه وسلّم أوّلهماأنّه قال: "من أبلى شبابه في المعصية كان مجنونا" والحديث الثاني أنه بينما كان الرسول في أصحابه إذ مرّ به رجل فقال بعض القوم:"هذا مجنون، فقال رسول الله: هذا مصاب، إنما المجنون على معصية الله تعالى". [1]

ومهما كان المعنى الذي قصده ابن حزم، فإنّ معنى الجنون مستهجن في الثقافة العربيّة الإسلامية، ولذا يذكره ابن حزم صراحة أو يلمّح له من قبيل قوله هذا هو "الهذيان" أوهذا من "التمويه والغش" أو"تخليط وهذيان من جاهل أعمى"، فيعرّض بخصمه في سخرية ويقصيه فكريا ودينيا، يقول:"وما فهم أحد قطّ له عقل أنّ للقياس في هذه الآية مدخلا أو طريقا، أو نسبة بوجه من الوجوه" [2]

و لعلّ ظاهرة الإقصاء في خطاب ابن حزم من الظواهر الأكثر بروزا فهو لا يدع لخصمه مجالا للدفاع عن منطق الحجج عنده، لأنّ ابن حزم يدحضها منذ الوهلة الأولى في مستويات عدة أهمّها المستوى اللغوي والمستوى المنطقي والمستوى الدلالي، وهو ما يتجلّى أيضا في صورة أخرى من الصور البلاغيّة، هي المقابلة.

ب- 3- المقابلة

لعلّ من أكثر الصّور المعبّرة عن السخرية في أيّ خطاب كان هو إيراد وضعين متضادين للموصوف، وتوريطه أمام المتلقي وتعرية أسباب الوهن في منطقه، وقد أكّد الباحثون المهتمّون بالسخرية وأشكالها هذا الأمر، إذ ذهب أحمد الشايب إلى

---

[1] النيسابوري(ابن حبيب): عقلاء المجانين، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د ت)، ص 8

وفي نفس الإطار أورد ابن الجوزي في كتاب الأذكياء خبرا يدلّ على المفهوم الديني للجنون قال:" قال أبو محمد عجيف: مرّ بي مجنون فقلت: يا مجنون، قال: وأنت عاقل؟ قلت نعم، قال : كلاّ يا مجنون ولكن جنوني مكشوف وجنونك مستور، قلت فسّر لي؟ قال: أنا أخرق الثياب وأرجم وأنت تعمّر دارا لا بقاء لها وتطيل أملك وما حياتك بيدك، وتعصي وليّك وتطيع عدوّك"(الأذكياء، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص206

[2] الإحكام، ج7، ص984

أنّه "في التضادّ تبلغ الاستحالة مداها وتصل إلى تخوم العدم، فأنت تصف الشيء وصفين متضادّين أو متناقضين معناه أن تخرجه من دائرة الوجود" [1]

لقد اعتمد ابن حزم المقابلة في التشهير بالمذاهب الأخرى سواء في تفسير الآيات القرآنية أو في تأصيل القياس نظرياً وعدم العمل به في النوازل أو في سنّ أحكام اجتهادية وعدم الأخذ بها يقول ابن حزم:"ومن أعجب العجب احتجاج المرء بما لا يراه حجّة! ولكن هذا غير بديع منهم! فهذا أبو حنيفة يحتجّ أنّ الخيار لا يكون إلاّ ثلاثة أيّام لا أكثر، بحديث المصراة، فإذا قيل له فهذا الذي تحتجّ به أتأخذبه؟ قال: لا" [2]

تبدو المقابلة واضحة بين الإيجاب في قوله يحتجّ وبين السلب في قوله قال لا، إذ المفترض أن يعمل المرء بما يدعو إليه وينافح عنه، ويحتجّ له، ولكن المفارقة بين هذا الجانب التنظيري وبين الجانب العملي عند هؤلاء الفقهاء حملت ابن حزم إلى كشف مغالطاتهم في أسلوب ساخر عمّقه اسم الإشارة "هذا"، إذ الغاية منه التركيز على أطراف السخرية :أبو حنيفة، واحتجاجه.

أماّ المقابلة الثانية فتتمثل في تفريق الحكم بين متماثلين تجمع بينهما نفس العلّة يقول ابن حزم:" وهذا من أبرد ما موّهوا به! وما علم قط ذو عقل(...) أنّ البئر إذا مات فيه سنّور نزح منها أربعون دلوا، فإن سقط فيها نقطة بول نزحت كلّها. وأنّ من مسّ دبره انتقض وضوؤه، وأنّ من مسّ أنثييه لم ينتقض وضوؤه! وهل بين هذه الوجوه والتي قبلها تشبيه؟!" [3]

يجري ابن حزم مقابلة بين حكمين مختلفين لمتماثلين في العلّة وهي النجاسة، وتظهر المقابلة في مستوى المفردات: سنور ميت في مقابل نقطة بول، فبين هذين الأمرين جامع النجاسة، ولكن التفاوت واضح بين الكليّة في السنور والجزئية في البول، فالمتوقّع أن يُحكم في نجاسة السنور أكثر من الحكم في نجاسة البول، أو على الأقلّ أن يتساويا في الحكم، إلاّ أنّ الفقهاء يخرقون أفق الانتظار ليحكموا عكس المتوقّع،

---

[1] الشايب(أحمد): الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2004، ص203

[2] الإحكام، ج7، ص1036

[3] الإحكام، ج7، ص 1073

وتكون المقابلة الثانية في الحكم على نجاسة السنور بنزح أربعين دلوا من البئر في حين يكون الحكم على نجاسة قطرة البول بنزح البئر كلّها.

إنّ هذه المقابلة التي يعرضها ابن حزم تكشف في النهاية عن سخريته من منطق الفقهاء في حكم التفريق بين المتماثلات والتسوية بين المتناقضات، ولذلك يشنّ حملة على القائلين بالشبه دون تصنيف المقيس والمقيس عليه ضمن نفس النوع والجنس، يقول في إطار عرضه لمختلف أنواع البيض وإبراز الفرق بينها: "فصحّ أنّ الشبه لا معنى له في إيجاب استواء الأحكام البتة، وبطل قولهم: إننا علمنا انكسار ما بأيدينا من البيض لشبهها بما شاهدنا انكساره منها، (...)، وإنّما الذي يصحّ بهذا فهو قولنا: إنّ كلّ ما كان تحت نوع واحد فحكمه مستو وسواء اشتبها أو لم يشتبها" [1]

ب- 4- الالتفات

هو من المواضيع التي تتقاسمه علوم البلاغة الثلاثة رغم اختلاف البلاغيين في تصنيفه، فقد ذكر الشريف الجرجاني(ت816هـ/1413م) أنّ "بعض الأفاضل قال يبحث عن الالتفات في كلّ واحد منها، أماّ في علم المعاني فباعتبار كونه على خلاف مقتضى الظاهر. أماّ في البيان فباعتبار أنّه إيرادلمعنى واحد في طرق مختلفة الدلالة عليه جلاء وخفاء. وبهذين الاعتبارين يفيد الكلام حسنا ذاتياّ للبلاغة. وأماّ في البديع فمن حيث إنّ فيه جمعا بين صور متقابلة في معنى واحد فكان من المحسّنات المعنويّة. ويؤيّده أنّ صاحب"المفتاح" ورده تارة في المعاني وأخرى في البديع، وفي خلاف مقتضى الظاهر كناية إيماء إلى أنّه من البيان أيضا" [2]

يؤكّد الشريف الجرجاني من خلال مقالته أنّ الانتقال من الجلاء إلى الخفاء هو مقوّم أساسيّ من مقوّمات الالتفات، وهذا الانتقال قد ينهض على الصور المتقابلة التي يكون التضادّ عنصرا هاماّ من عناصرها، وعنصرا باعثا على الاستهزاء والسخرية من الطرف المقابل، هذا ما عوّل عليه ابن حزم في خطابه، يقول مثلا في إطار ردّه

---

[1] نفسه، ص1072

[2] الجرجاني(الشريف): حاشيته على الكشاف عن حقائق التنزيل، الدار العالميّة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1968، ج1، ص 63

لمزيد التعمّق:

- صولة(عبد الله): الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، دار الفارابي، ط1، 2001، ص 454
- الهيشري(الشاذلي): الالتفات في القرآن، حوليات الجامعة التونسية، عدد 32، 1991، ص 131- 172ص

على القائلين بالقياس:" وشغب أصحاب القول بالقياس بأشياء موّهوا بها، ونحن إن شاء الله تعالى ننقض كلّ ما احتجوا به، ونحتجّ لهم بكلّ ما يمكن أن يعترضوا به" [1]

الملاحظ من خلال هذا الشاهد أن ابن حزم استعمل نوعا خاصا من الالتفات هو التفات الضمائر، فقد أورد في البداية ضمير الغيبة(هم) وصرف الكلام مباشرة إلى ضمير المتكلم الجمع (نحن)، وهذا الالتفات فيه تغييب للخصم ورغبة في التشنيع به، كأنه على حدّ تعبير الزمخشري:" يذكر لغيرهم خصالهم ليعجّبهم منها ويستدعي منهم الإنكار القبيح" [2]

وفي مقابل تغييب الخصم وإقصائه يحضر ضمير المتكلّم الجمع ليبرز ابن حزم من خلاله سلطته وأهميّة خطابه في مقابل هشاشة خطاب الطرف المقابل، على أنّ الالتفات في هذه القولة لم يحصل في مستوى الضمائر فحسب، وإنما كان في الأزمنة، فقد استعمل ابن حزم الماضي (موّهوا/ احتجّوا) ثمّ عدل عنه إلى المضارع الدالّ على المستقبل(ننقض/ نحتجّ)، وهذا الالتفات مقصود إذ أنّه يقوّي حضور ابن حزم ويغيّب خصومه ويقلّل من شأنهم، والتغييب في حدّ ذاته شكل من أشكال السخرية المضمرة، وليس له الوقع النفسي الذي يحدثه المضارع في المتلقّي، يقول ابن قيّم:"اعلم أنّ الفعل المضارع إذ أتي به في حالة الإخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي وذلك لأنّ الفعل المضارع يوضّح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتّى كأنّ السامع يسمعها ويشاهدها وليس ذلك في الفعل الماضي" [3]

إنّ الالتفات سواء في مستوى الضمائر أو الأزمنة، إنّما هو عدول في الأسلوب غايته لفت الانتباه إلى مواطن مخصوصة من الخطاب، وهو في هذا المقام ردّ ابن حزم على تمويه الخصم ونقض دعاويه، أي لفت انتباه المتلقى غلى كيفية مواجهة الخصم وتوهينه إماّ من خلال السخرية أو التشنيع والشتم.

2- وظائف السخرية في كتاب" الإحكام في أصول الأحكام"

[1] إسماعيل(عزّ الدّين): جماليات الالتفات، ضمن أعمال النادي الثقافي الأدبي، جدّة، 1990
الإحكام، ج7، ص975

[2] الكشاف، مذكور، ج1، ص 64

[3] الفوائد المشوق، مذكور، ص148

تكمن أهميّة هذا العنصر في الكشف عن أبعاد حضور السخرية في كتاب يهتمّ بتشريع الأدلة الكليّة من أحكامها التفصيليّة، ولعلّ مأتى الغرابة في ذلك أنّ هذا الكتاب يكاد يكون الفريد من بين كتب الأصول في اعتماد السخرية سبيلا من سبل توهين حجة الخصم والحطّ من قدرته المعرفية واللغويّة، ولكن البحث في أساليب السخرية وصورها في هذا الكتاب يكشف عن غايات أخرى أرادها ابن حزم في سخريته، أجملناها في قسمين: أوّلها التوظيف الحجاجي وثانيهما التوظيف المذهبي.

2- أ- التوظيف الحجاجي

لا يمكن أن نفهم حضور السخرية في كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" إلاّ في إطار الأبعاد الحجاجية المنافحة عن أصول الشرع، والمبكتة للخصم بالدليل وحجة السلطة، ومستندنا في ذلك أمران: أوّلها تصريح ابن حزم في مقدمة كتابه بهذا المشغل وثانيهما استئناسه بخطط حجاجية أثناء ردوده الساخرة.

2- أ- 1- المشغل الحجاجي عند ابن حزم

لم يُخف ابن حزم مشاغله الحجاجية، فقد صرّح بها في مقدّمة كتاب الإحكام، وبيّنّ أنّ غرضه من تأليفه هو الردّ على من وهنت حججهم وأساؤوا فهم أحكام الدين أو تفسير الآيات دون مراعاة شروط القراءة وحدودها يقول:"فبيناّ بحول الله تعالى وقوّته غلط من غلط في هذا الباب، بأنّ من ترك ماهو من الدين مخطئا غير عامد للمعصية، أو عامد لها، أو أدخل فيه ما ليس منه كذلك، فلا يخرج البتة الخطأ في أحكام الديانة عن هذين الوجهين، إماّ ترك وإماّ زيادة ولخّصنا الحقّ تلخيصا لا يشكل على من نصح نفسه" [1]

ولم يكتف ابن حزم بعد ذلك بالمقدّمة، بل عقد الباب الثالث في هذا الغرض ووسمه بإثبات حجج العقول، إذ بيّن أهميّة المناظرة والجدال للوقوف على صحيح الأدلّة من الأحكام، وأصّل قيمة الحجاج في القرآن والسنّة، وأكّد أنّ الحجاج والجدال واجبان على المجتهد لنصرة الحقّ والذود عن الشرع يقول:" فالجدال الذي ندعو إليه

[1] الإحكام ج1 ص 24

هو طلب الحقّ ونصره وإزهاق الباطل وتبنّيه فمن ذمّ طلب الحقّ وأنكر هدم الباطل فقد ألحد وهو أهل الباطل حقاً والخصام بالباطل هو اللدد" [1]

وصفوة القول فإنّ مشغل الحجاج في ذهن ابن حزم هو الدافع الأساسي لكتابة "الإحكام" هذا ما أبناه من خلال تصريحاته في المقدّمة ومن خلال تأصيله لأهميّة الجدل والمناظرة وتخصيص باب في ذلك ثمّ ربط المناظرة والحجاج بنصرة الدين وردّ المظالم، ولعلّ عنوان الكتاب نفسه يحيل إلى معنى الحجاج من خلال لفظ "الإحكام" وهو مصدر يدلّ على المنع من الفساد، أي فساد رأي الخصم وهو المعنى الذي أورده ابن منظور عن الأزهري في قوله:" وروينا عن إبراهيم النخعي أنّه قال حكم اليتيم كما تحكم ولدك أي امنعه من الفساد وأصلحه كما تصلح ولدك وكما تمنعه من الفساد، وكلّ من منعته من شي ء فقد حكمته وأحكمته" [2]

وانطلاقا من ذلك تصبح السخرية عند ابن حزم تقنية لخدمة هذه الأغراض الحجاجية من خلال بيان فساد رأي الخصم وردّ أقواله وتصبح السخرية بهذا المعنى قيمة أخلاقية تمنع الفساد وليست رذيلة تستنقص الآخر وتتعالى عنه، وعلى هذا الأساس يمكن أن نرصد الخطط الحجاجية انطلاقا ومن الردود الساخرة

2- أ- 2 الخطط الحجاجيّة من خلال الردود الساخرة

استأنس ابن حزم في ردوده الساخرة بجملة من الخطط تدعم غايته الحجاجية وتحرج الخصم لأنها تبيّن تهافت قوله وضعف براهينه، وقد رصدنا لذلك ثلاث خطط تواردت في كتاب " الإحكام" وهي:

- خطّة التبذير: ونعني بها الحجج الزائدة التي رتبها ابن حزم في ردوده على الخصم ترتيبا يزيد على الحدّ، فتبدو متراصّة في خطابه تجمع دقائق كلام الطرف المقابل في مستوى اللغة والبراهين والترتيب المنطقي والتداولي، وتسدّ عنه منافذ النجاعة الحجاجية لأنّ اكتناز الخطاب بهذه البراهين من شأنه أن يهوّل خطاب الخصم ويمنحه تهافتا مضاعفا كما من شأنه أن يهوّن الحجج التي يستند إليها، فيسحب منه مشروعية الخوض في المسألة أصلا سيّما إذا أشفع ابن حزم قوله بتشابيه أو كنايات أوجمل استفهامية تشكّك في مدارك الخصم العقلية

---

[1] الإحكام، ج1، ص42

[2] ابن منظور(جمال الدين): لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003، ج25، ص 187

والنفسية، ومن أمثلة التبذير في خطاب ابن حزم والاستفاضة في إيراد الحجج عنده ما ورد في نفي حجية القياس من خلال الآية 23 من سورة الإسراء، فقد انتقل بعد تفسيره لهذه الآية إلى الاستشهاد بالآية 20 من سورة النساء، فالآية 47 من سورة الأنبياء، ثم الآية7 من سورة الزلزلة، ثمّ الآية 75 من سورة آل عمران، فالآية188 من سورة البقرة، ثمّ الآية 31 من سورة الإسراء، ثمّ الآية 24 من سورة النجم ليرجع من جديد إلى الآية المنطلق في الحجاج ويستفيض بعد ذلك في شرحها وتفسيرها نافيا عن معناها كلّ علاقة بالقياس أو بحجيّته، ويستدعي في الأخير الاستفهام هادما أطروحة الخصم في سخرية مضمّنة إذ يقول:" فكيف يريد هؤلاء القوم بنا أن نحكم بما يقرّون أنّه كذب؟! [1]

❖ خطّة التوجيه

استعمل ابن حزم جملة من الأساليب الدالّة على هدم مقالة الخصم وبراهينه، ومن ثمّ توجيه المتلقي إلى الحجج البديلة التي تعبّر عن جهة الصواب، ومن أمثلة الأساليب المعبّرة عن توجيه الحجج بسخرية ضمنيّة ومضمرة كثرة توارد النفي والجزم فيما يتصل بحجج الخصم والغاية من كلّ ذلك سدّ منافذ الحجاج عليه وتبكيته بالبدائل المعبّرة عن الحقيقة(كما يراها ابن حزم)، ومن أمثلة نفي مقالة الخصم وإثبات البديل قوله:

- "وهذا الاحتجاج منهم جمع الشناعة والإثم لأنّ الله تعالى لم يأمر قطّ أولي الأمر منّاً أن يقولوا بآرائهم ولا بقياساتهم، ولا أن يقولوا..وإنما..." [2]

- "فبطل ما موّهوا به من تقسيمهم الشريعة على فروع وأصول، وصحّ أنّ جميع أحكام الشريعة كلّها سواء وأصول، ولا يوجد شيء منها إلاّ عن قرآن أو عن الرسول أو عن إجماع". [3]

إنّ هذه الخطّة في الدحض والبناء من جديد، إنّما تدلّ على استصغار ما يصدر عن الخصم واعتباره ضربا من التمويه واللغو، فتضحي السّخرية واضحة في تفاوت المقامات المعرفية والمراتب الإدراكيّة، وتتقلب الأدوار من مستوى أفقي يفترض أن

[1] الإحكام، ج7، ص 977

[2] الإحكام، ج7، ص981

[3] نفسه ج8، ص1179

يدلّ على التساوي أو التقارب بين المتناظرين إلى مستوى عمودي يؤكّد التباعد والتفاوت بينهما ممّا يسمح ضرورة بإقصاء المقالة الهشّة والحجّة الواهنة، وتصبح المناظرة أو المحاججة انتصارا للحق وانتصارا للدين وكذلك للمذهب. [1]

❖ خطّة التجهيل

نعني بالتجهيل أساليب الاستهجان والتشكيك في قدرات الخصم والاستنقاص من شأنه المعرفي وكفاءته الحجاجيّة، والغاية من وراء ذلك هي سحب شرعية القول منه وحمله على عدم الخوض في هذه المسائل الأصوليّة، وفي المقابل يثبت المحاجّ تمكّنه من آليات التفكير وحذقه في اقتناص الحجة المناسبة وترتيبها في سياق الكلام بالإضافة إلى تمهّره في معرفة لسان العرب ومعهودهم في الكلام.

لقد توارد في كتاب "الإحكام" معجم من العبارات الدلّة على تجهيل الخصم واستنقاص قدراته من ذلك ردّ ابن حزم على أصحاب القياس:

- **"تااللّه ما قدّرنا أنّ عاقلا يرضى لنفسه بهذه الخساسة، وبهذا الكذب في الدّين ويعاجل هذه الفضيحة نعوذ باللّه"** [2]
- **"إنّما اشترطنا أن نتكلّم فيما يعقل، وأمّا الهذيان فلسنا منه في شيء"** [3]

---

[1] **لمزيد التوسع في علاقة الانتصار بالمناظرة والحجاج يراجع:**

الخياط(أبو الحسين): الانتصار والردّ على ابن الراوندي الملحد، ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليه، بيروت، 1957

البطليوسي(ابن السيد): الانتصار ممن عدل عن الاستبصار، تحقيق حامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1955

نتبنّى موقف حمادي صمود في تفسيره فعل الانتصار يقول:" يحتاج الانتصار ليفعل فعله في الناس وليروج باعتباره خطاب جمع وضمّ أن يتستّر تحت أقنعة العدل والموضوعيّة في الحكم والبحث عن الحقيقة بتحليل المواقف والبحث عن أسبابها وإيجاد المعاذير للبعض منها والاستناد على بعضها الآخر المبني على سوء النيّة والظلم) في كتابه: بلاغة الانتصار في النقد العربي القديم رسالة أبي بكر الصولي إلى مزاحم بن فاتك أنموذجا، دار المعرفة للنشر، ط1، تونس، 2006، ص113

[2] الإحكام، ج 7، 991

[3] نفسه، ص 995

- " وإنّ العجب ليكثر من عظيم تمويههم في الدّين وتدليسهم فيه باحتجاجهم بهذه الآيات في القياس! "[1]

إنّ خطّة التجهيل في النهاية لم تكن في خطاب ابن حزم منفصلة عن السخرية فقد وردت كلّها في جمل تعجبيّة، والتعجب هو نفرة من خرق الإمكان وتجاوز المعهود والمتواتر في الدال والمدلول والدليل عليهما، ومن هنا تكون السخرية إقصاء للخرق واللا متوقع ودعوة إلى التماهي والانخراط في مقالات الجماعة، وإقامة الحجة على المختلف بتوريطه وتوهين حججه

2- ب- التوظيف المذهبي

يعدّ التمذهب عند القدامى عنوان انتماء فكريّ ورؤية فقهية معيّنة للشريعة وإعلانا عن منهج مخصوص في التعامل مع الأدلّة الشرعيّة ومع الأحكام التفصيليّة، وقد سعى كلّ فقيه وأصوليّ أن ينافح عن مذهبه ويبيّن تهافت أصحاب المذهب المختلف، فأفرز ذلك قضية كثيرا ما أزعجت ابن حزم في كلّ مصنفاته وهي قضيّة التقليد [2] انطلاقا من ذلك شنّ ابن حزم حملة صريحة على مقلّدي المذاهب وأحرجهم بأساليب ساخرة تحطّ من قدرتهم على الاجتهاد وتقاعسهم في طلب الأدلّة والأحكام من منابعها الأصلية أي القرآن والسنّة، وفي المقابل دعا ابن حزم إلى الحدّ من سلطة الوسائط الفقهية في معرفة أحكام الشرع يقول:" فليت شعري! ما الذي أوجب عليه أن يميل إليه دون أن يميل إلى غيره ممن هو مثله في الظاهر، أو أفضل منه في الظاهر، أو في الحقيقة من سابقي الصحابة، حتى صاروا يتيدنون بقوله في دينهم الذي هو وسيلتهم إلى الله تعالى؟" [3]

---

[1] نفسه، ص 999

[2] الإحكام ج6، ص 889 يقول ابن حزم:" ثمّ إناّ نقول:" إنّ العجب ليطول ممن اختار أخذ أقوال إنسان بعينه لم يصحبه من الله عزّ وجلّ معجزة، ولا ظهرت عليه آية، ولا شهد الله له بالعصمة عن الخطإ ولا بالولاية وأعجب من ذلك إن كان من التابعين فمن دونهم، ممّن لا يقطع على غيب إسلامه، ولا بيد مقلّده أكثر من حسن الظنّ به، وأنّه في ظاهر أمره فاضل من أفاضل المسلمين، لا يقطع له على غيره من الناس بفضل، ولا يشهد له على نظرائه بسبق إنّه هذا لهو الضلال المبين

[3] الإحكام ج7، ص 888

لقد رسّخ ابن حزم هذه القناعة في كامل كتاب"الإحكام" وخاصّة في باب إبطال القياس، فبيّن تهافت أئمة المذاهب ومن تبعهم في القول بالقياس وتأصيله ثمّ عدم استعماله في الأحكام، وقد استأنس بالسخرية لبيان مظاهر التهافت في أقوالهم ومن ثمّ إقامة الحجة عليهم من ذلك ردّه على أبي حنيفة في احتجاجه بمالا يراه حجّة يقول:" ومن أعجب العجب احتجاج المرء بما لا يراه حجّة! ولكن هذا غير بديع منهم! فهذا أبو حنيفة يحتجّ أنّ الخيار لا يكون إلاّ ثلاثة أيّام لا أكثر، بحديث المصراة، فإذا قيل له فهذا الذي تحتجّ به أتأخذ به!؟ قال: لا" [1]

ولئن كانت هذه السخرية ناجعة في إبراز خطاب الخصم المتهافت، فإنّها تلعب دورا مضاعفا في تأكيد تماسك خطاب ابن حزم ومن ورائه خطاب المذهب الظاهري وهو ما يفسّره تكرار ضمير المتكلّم الجمع(نحن) بعد نسق الردود الواردة في هذا الباب يقول ابن حزم في إبراز أهمية القول بالاشتباه عند الظاهريّة:" ونحن لم ننكر الاشتباه وإنّما أنكرنا أن نوجب أحكاما لم يأذن بها اللّه تعالى ولا رسوله صلى اللّه عليه وسلّم من أجل الاشتباه في الصّفات". [2]

الخاتمة

إنّ مبحث السخرية من المباحث الدقيقة في أيّ نصّ من النصوص مهما اختلف الحقل المعرفي المحتضن له، وتكمن دقّة هذا المبحث في وجوب تتبّع سياق الخطاب ومقامه، وفي ضرورة تقصّي الأساليب اللغويّة والصور البلاغية والخطط التي يوظفها المتكلّم للتعبير عن موقفه الساخر من الطرف المقابل.

ولعلّ مردّ أهميّة السخرية في الخطاب الأصولي إلى أمرين: أوّلهما أنّها تعبّر عن نفسيّة المتكلم في مواجهة المواقف المختلفة والمتهافتة في نظره، وهي نفسية تكشف عن ذروة المرارة لعدم احتمال منطق الخطاب المضادّ ذاك الخطاب المنتشر عبر تراكمات التاريخ، ونعني خطاب بقية المذاهب التي انتقدها ابن حزم، ومن هنا تصبح السخرية مجالا خصبا للدراسات المعنية بعلم النفس الديني، وهو ما وقفنا عنده مع ابن حزم في إقصاء المختلف وثلبه واستهجانه وإخراجه من دائرة الإنسانية، أمّا الأمر الثاني الذي يؤكّد أهميّة السخرية في الخطاب الأصولي فهو تعبيرها عن

[1] نفسه، ص 1036

[2] الإحكام ج7، ص1064

نجاعة المتكلّم في الاحتجاج لآرائه من خلال ثنائية الهدم والبناء بالإضافة إلى خطط أخرى كشفنا عن بعضها وأهمّها التبذير والتوجيه والتجهيل ويبقى البحث في الخطط الحجاجية الأخرى رهين توسيع البحث في مدوّنات أصولية فقهيّة أخرى.

لقد أفرز هذا البحث قضايا عديدة خاض فيها ابن حزم وأكّد خطورتها في قضيّة الاجتهاد وأهمّها قضيّة التقليد والتباسها بخمول الفكر وعدم التدبّر في آيات القرآن وسنّة النبيّ، وهو ما يفضي ضرورة إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال، بالإضافة إلى قضية القياس والتباسها بالظنيات ولا يرى ابن حزم بعد ذلك حرجا من توريط الخصم فيضعه أمام أمرين خطيرين إماّ الكفر أو التناقض [1]

ولئن عبّر ابن حزم عن هذه القضايا صراحة، فإنّ ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى قضايا أخرى أفرزتها مظاهر السخرية وأهمّها إقصاء المختلف مماّ أدّى إلى الصراع المذهبي واحتداد المناظرات وخرق آدابها خرقا يصل إلى السّباب والشتم والتكفير.

﴿..........﴾



[1]. الإحكام ج7، ص1065:" وهذا مثل قول المالكي والحنفي: إنّ نكاح من أعتق أمته وتزوّجها وجعل عتقها صداقها نكاح فاسد، فيقول لهم أصحابها والشافعيون: فنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذن صفيّة فاسد فإن أقدموا على ذلك كفروا وإن كعّوا عنه تناقضوا، وكقول الحنفي: إنّ الحكم باليمين مع الشاهد مخالف للقرآن، فنقول لهم : نحن والشافعيون والمالكيون، فحكم النبي بذلك إذن مخالف للقرآن! فإن قالوا بذلك كفروا، وإن كعّوا تناقضوا"